المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان الاسلام سوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر في يوم السبت ١٦ رجب سنة ١٣٢٠ — ١٨ اكتوبر (تشرين ١) سنة ١٩٠٢)

الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية

(تتمة المقال الرابع لذلك الامام الحكيم)

« الجواب »

أقول هذا كلام فيه شِبَهٌ من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجين من قال بقول السلف فليس فيما نقل عنه التمسك بالدين فان حملة العالم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه فيتبعه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرية الفكر يعوذون بالله منها . فان شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين او العلم فانا معك من الشاهدين . اعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن

معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم او يُجَنُّ او يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس ، . يدلك على ان العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من اهل الدين . لا تقل : إن هذه السياسة من الدين ، فاني اشهد الله ورسله وملائكته وسلفنا اجمعين ، ان هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التي تخرج في اصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لَشَوْبًا من حميم ؛ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ، إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ،

جمود المسلمين واسبابه

واما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح ان ينسب الى الإسلام وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها وتصوع بياضها ليس فيها ما يصح ان يكون اصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وإنما هي علة عرضت على المسلمين عند ما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى افئدتهم . وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها نور الإسلام من عقولهم هو السياسة كذلك . هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى واتباع خطُوات الشيطان هو السياسة

لم ار كالإسلام ديناً حفظ اصله ، وخلط فيه اهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفِر عهده ، وكفر وعيده ووعده ؛ وخفِيَ على الغافلين

قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، اكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خُشَارة من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ، ولاهم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفَنُ الرأي من صحة الحكم ،

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سيئاً فيما صار اليه أهله . كان الاسلام ديناً عربياً ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً بعد ان كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا الصق بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد ان يتخذ له جيشاً اجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك . وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يسع له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه وخلفه ويئس ما صنع بأمته ودينه — اكثر من ذلك فجلب الاجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن الاعشية او ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين . بل جاؤا الى الاسلام بجفوة الجهل يحملون الوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل آلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم

ومنهم من تولى أمره ، أيّ عدوٍ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم. أما العلم فلم يخلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ليُمدُّوا من قبيله ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه. ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين. زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعالجوه ، أو متداعيا ليدعموه ؛ أو يكاد ان ينقض ليقيموه ،

نظروا الى ما كانوا عليه من خفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بان في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والنوغاء عون الناشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لناهذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة ، وقرروا ان المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشئون العامة . وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه . وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الاحوال ، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال

آخر الزمان. وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل. وأن الأسلم تفويض ذلك لله وما على المسلم الا ان يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الاوهام. وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلاً للأيدي عن العمل. والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى. أمور اذا اجتمعت أهلكت. فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم وبيانها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأثرة هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات، فجل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج وقليل من الاقوال التي حرفت عن معانيها. ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا. نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه. فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً. والقرآن شاهد صادق «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» يشهد بأنهم كاذبون، وأنهم عنه لاهون، وعما جاء به معرضون، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت انه علة لا بد ان تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه، وولوع شهواتهم بالدفاع عنه، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وإنما يحسن إجمال القول فيها. كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح به في الأرض ويصعد به الى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته، أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد. فلما وقف الدين، وقعد طلاب اليقين، وقف العلم وسكنت ريحه، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

افساد الجمود للغة: أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يُعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم في فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها، وما تشير اليه هيئة تركيبها، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم، يساوون من كانوا عرباً بسلائقهم، فلما لم يبق للمتأخر الا الأخذ بما قال المتقدم قصر المتعلمون تعصبهم على فهم كلام من قبلهم واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون ان يرجعوا الى دليله ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه بأن كان عرض له في فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لَخَطَّأُوا نظرهم وأعموا أبصارهم وقالوا: نعوذ بالله ان تذهب عقولنا الى غير ماذهب اليه متقدمنا وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية. فأي حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها مايفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من أولئك العرب الذين

كان ينظر الأولون في كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول بل ولا بما كان يحفّ بالقول من أحوال الزمان فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم . جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة وان لم يصلوا منها الى غاية في فهم ما وراءها فدَرَسَتْ علوم الاولين وبادت صناعاتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم ان أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلَّغ ربما كان أوعى من السامع (١) وان هذه الامة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره (٢) وقلة الالتفات الى ان ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة الا بالله . لا ريب

---

(١) المنار : يشير الى حديث ابن مسعود عند الترمذي وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نضّر الله أمرءا سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلَّغ أوعى له من سامع » ورواه غيرهما عن غيره (٢) يشير الى حديث

ان القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ؛ يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم مايقول ، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن ان يصل بمعناه الى العقول ،

افساد النظام والاجتماع : وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الأفراد والكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه وهو كتاب الله وما صح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية . ولو عرف بعضهم صحة مايقول الآخر لأسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له ان ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب إمام آخر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لكنا اليوم في شأن غير مانحن فيه . يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضاً ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود ، قد يؤدي الى الجحود ،

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف

أنس عند الترمذي وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ امتي مَثَلُ المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » ورواه غيره

أشخاص في النظر والرأي. وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه. مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد. فلما جاء دور الجمود — دور السياسة — أخذ المتخالفون في التقطع، وأخذت الصلات تتقطع، وامتازت فِرَقٌ وتألفت شِيَع. كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمي، وخلف في أكثر المسائل لفظي، وانما هي الشهوات وضروب السياسات اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل من عدة سنين: إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها. وقال: إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعاً للضرر والفساد. فقام كثير من المتورعين، يحوقلون ويندبون حظ الدين، كأن الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين، مع انه لم يطلب الا الدين، ولم يأت الا بما يوافق الدين، وبما كان عليه العمل في أقطار العالم الى ماقبل عدة سنين. فأين قول هؤلاء «وكلهم من رسول الله ملتمس»؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ماوراءه. أو هي السياسة تحل ماتشاء وتحرم ماتشاء، وتصحح ماتشاء وتبطل ماتشاء، والناس منقادون اليها بأزمة الاهواء،

جناية الجمود على الشريعة: هذا الجمود في أحكام الشريعة جرّ الى غير حمل الناس على إهمالها. كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاماً

سمحة تسع العالم بأسره وهي اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي اليها. وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها. صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول الى علمها فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعدّ شيئاً اذا نسب الى من لا يعرفها. وهل يتصوّر من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها؟ فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم على مقتضى نصوصها. وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف. سألت يوما أحد المدرسين في بعض المذاهب: هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك؟ فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس. هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة تحيى بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء.

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن الشريعة. لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسؤول بأعلم من السائل والكل جاهلون. وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها. وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم. فاذا

تلت للعارف تعلّم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك واعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلا وإن لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه . قال : سبحان الله: هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن لا يأتي شيئاً إلا ما أتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه . ثم إذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وانه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال خصوصاً عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد . فقال لي : أنه لا فائدة في ذلك فطفقنا وهو تعب في غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنتهي . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهي لغوا . فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم . ولم ينظر في الوسيلة لاقتلاع هذا الفساد مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه . هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الالهية التي وردت في

النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وأن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين

لا بل إذا قلت له ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه أو ان هذا الكتاب الذي تعوّد الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيرهُ أفضل منه. كاد يظن أن قولك هذا مخالفٌ للدين ورأى العدول عما تعوّده نوعاً من الاخلال بالدين. وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل الله اذا قلت له: ان دروس السلف كانت تقريراً للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلامذته ولم يكن بأيدي الطلبة الا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم. وقد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر في عمله اعتماداً على أنه وجد الناس هكذا يعملون. فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين؟!

جناية الجمود على العقيدة: ذلك جمود هم في العمل وأشد ضرراً منه الجمود في العقيدة. نسوا ما جاء في الكتاب وأبدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز الاخذ فيه بالظن وان العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها وان العقل ان لم يستقل وحده في إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة في الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز ان يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول. نسوا ذلك كله وقالوا: لا بد من اتباع مذهب خاص في العقيدة

وافترقوا فرقاً وتمزقوا شيعاً كما قلنا . ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد بل ذهب بعضهم الى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول . وكأنهم لذلك جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف . فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك . ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى أميهم فتراهم يعتقدون بكل ما يقال وينقل عن معروف الاسم وان لم يكن في حق الأمر من أهل العلم وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجرّ التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ويتحنون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين الى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشأه سوء الاعتقاد الذي نشأ من ردائة التقليد والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل وجهاد شديد

وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف ومن لا يعرف . وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا إن شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته — فافتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن ان المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تساؤل ، ودخلت السياسة ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا . سكت السائل وماذا يصنع المجيب . نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلها الى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ولا تجني الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد ان يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف فاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه « ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين » ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه

ماذا يمكن ان أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الدين واذا دعي الى ترك المنكر نفر وزمجر ، وأبى واستكبر ، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون انهم يتقربون الى الله بما يفعلون

هذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين ديناً ويصمم على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل. فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منذريه ولو شاؤا لأقبل كل منهم على صاحبه وهو أيسر شيء على حملة الشريعة وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته، ثم العمل على حفظه وحياطته،

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما فى مدارس الحكومات الاسلامية واما فى المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجاً عنها. لاأتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاس او سمرقند وبخارى أو الهند فاني لاأعرف كثيراً من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وارجو أن يكون منهم لقومهم مايننظره الاسلام من العارفين به فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم لقومهم فنعم المتعلمون هؤلاء أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسوريا وسائر بلاد الدولة العثمانية. سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل فى مدارس لم

تبن الالتزويج دين غير الدين الاسلامي . وأباحت لغير آبائهم هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وان لا ينكروا عليهم عملهم مادامت العقيدة سالمة من الهدم والضعضعة

جمود تلامذة المدارس الأجنبية : هؤلاء التلامذة ان كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقد يسري الى عقائدهم شيء من الضعف وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مراراً . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال . وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلا عن أولئك المساكين . بل لو كان هنالك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعباً وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . وياليتهم يستبدلون بالدين وادعاً آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يبلون طبائع هذه الأمم أو كما يروّجه بعض من لا يريد الخير بها . ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع اللهم الا زاجراً عن خير أو دافعاً الى شر فاتخذوا إلههم هواهم وامامهم شهوتهم فهلكوا وأهلكوا . ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم . فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

نمو تلامذة المدارس الرسمية والأهلية :

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية . فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق في الكون السماوي أو الارضي أو في الاجتماع الانساني ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفاً للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين . هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله وجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من الجهل . ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك . حار لا يدري الى أي كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القوم على ما فيها من تشتيت وتعقيد وألقوها كما ورثوها . فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آداباً في غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « مادام الشرف محفوظاً » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك فانما ينثر الالفاظ نثراً لا يرجع فيها الى أصل ثابت ولا الى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي الى المفسدة وهو يشعر

أولا يشعر على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام فى كلام وليس مايصنعون . ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ؛ وتطمئن اليه نفوسهم ؛ ولذاقوا طعم العلم مأدوماً بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع اليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

﴿ الجمود علة زوال ﴾

(المقال الخامس لذلك الامام الحكيم . وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وبيانه يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه فى الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث — مرض الجمود على الموجود — وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة الى إعادة ذلك . ثم اننا أشرنا أيضاً الى بعض الاسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام وان محدثها إما عدوٌ للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم والاستغلال أيديهم لخاصة نفسه . وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً وهذا الثاني كان أشد نكاية ، وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سمته الأولى وكرمه الفياض وينهض بأهله الى ماذخر لهم فيه ؟ ؟

جاء في الكتاب المبين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ذلك الذكر هو الذكر الحكيم وهو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وهو كما قال « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده فلا تطاول اليه يد مغير ولا يد عبث جاهل، فبقي كما نزل ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله فذلك مما لا يتسرق به فهو لا يزال بين دفات المصاحف ظاهرا نقيا برئيا من الاختلاف والاضطراب. وهو إمام الثقلين، ومستودع الدين، واليه المرجع اذا اشتد الامر وعظم الخطب وشمت النفوس من التخبط في الضلالات. ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقامها دونه ولا بد أن تمزق كلها بأيدي أنصاره فيتباهج ضياؤه لأعين أوليائه ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراه، بما عرفوا من نجاح مسعاه، ولكن الذين اطبقت عليهم ظلم البدع، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع، وطمست بصائرهم، وفسدت عقولهم، بما حشوها من الاباطيل، وبما عطلوها عن النظر في الدليل، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر. يصيحون بأنهم عمي صم فلا يرون له سناء، ولا يسمعون له نداء، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون. هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون الغارة على

الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوّون حجج أعدائه في دعواه بزعمهم الاجماع تحت لوائه ، وماهم منه في شيء كما قدمنا

هؤلاء لا يدرون بما أصاب الأمم قبلهم فقد أتوا سنتهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه [1] ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين وبين لهم ما نزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ، فحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم . فهل ينتظر المتبعون سننهم ؛ السائرون على آثارهم ؛ أن يمنع الله بهم غير الذي سنه بسابقهم وقد قضى بأن لا تبديل لسننه ولن تجد لسنته تبديلا

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يمدّ لهم وسائل الخلاص ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ويسير بهم الى منابع العلم فيغترفون منها مايشاؤن فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم يد بعض ويسيرون الى المجد غير نائمين ولا مخذولين . ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبداً ولكنه سيهذبها وينقيها من

---

(١) المنار : في الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » الحديث رواه الشيخان وغيرهما

وضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل لك على زواله بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون اليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم،

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لابد ان يعود نوره الى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات ويرجع الى موطنه الاول من قلوب المسلمين ويأوي اليها. العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا اليه، ولا يعتمد الا عليه،

يقول اولئك الجامدون الحامدون كما يقول بعض أعداء القرآن: ان الزمان قد أقبل على آخره، وإن الساعة أوشكت ان تقوم، وإن ماوقع فيه الناس من الفساد، وما مُنِيَ به الدين من الكساد، وما عرض عليه من الملل، ومانراه فيه من الخلل، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم، فلا فائدة في السعي ولا ثمرة للعمل، فلا حركة الا الى العدم، ولا يصح ان يمتد بصرنا الا الى العدم، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم، (نعوذ بالله) هؤلاء حفدة الجهل وأعوان الناس يعرفون بما لا يعرفون. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا انه كاد ينقطع عند نهايته؟ ان الذي مضى بيننا وبين مبدإ الاسلام الف وثلاثمائة وعشرون عاماً وإنما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى. وان آيات الله في الكون - وإن كانت تدل على أن ماضي على الخليقة يقدر بالدهور والدهاريز، - تشهد بأن مابقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير؛ «فالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً». ان مابيننا وبين مبدإ الاسلام لا يزيد

عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة. فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام؟ ان زمناً كهذا لايكفي — وقد تبين انه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه. ولِمَ تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به الى مايرون ونرى. ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعرف حدود سلطته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف مامكنه فيه من أسرار العالمين، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً، وقفل راجعاً، وأخذ إخذ الراسخين في العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روي عنه: «هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرارُ بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول [illegible] واعتبر بمدحه ذلك بقوله: «فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين». هو القادر الذي اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع[1] قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس ان يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت[2] القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لاتبلغه الصفات لتناول علم ذاته،

(١) المنقطع مايقطع عنده السير وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها

ردعها وهي تروب مراوي سُدف[1] الغيوب متخاسئة اليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت[2] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال اولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته »

هنالك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما، وكان ما استنباء به من نبراس الدين صحيحاً، إياك ان تعتقد ما يعتقده بعض السذج من ان فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة يقتضي الغيرة والغريزة. فانما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس. وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادي البرهان العقلي كوجدانك أنك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك.

مُنحنا العقل للنظر في الغايات؛ والاسباب المسببات؛ والفرق بين البسائط والمركبات؛ والوجدانَ لإدراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام؛ وهلع واطمئنان؛ وشماس وإذعان؛ ونحو ذلك مما يذوقه الانسان؛ ولا يحصيه البيان؛ فهما عينان للنفس تنظر بهما — عين تقع على القريب؛ وأخرى تمتد الى البعيد؛ وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى. فالعلم الصحيح مقوم الوجدان؛ والوجدان السليم من أشد أعوان العلم؛ والدين الكامل علم وذوق؛ عقل وقلب؛ برهان وإذعان؛ فكر ووجدان؛ فاذا اقتصر دين على أحد

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظاً ومعنى (٢) جُبه ضربت جبهته ورُدَّ

الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات ان يقوم على الأخرى .
ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد إنسانين ؛ والوجود الفرد وجودين ؛

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنه تعمله طوعاً لوجدانك ؛ وربما أيقنت النفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ؛ فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك ان ترجع الى نفسك فتحقق من أحد الأمرين — إما أن يقينك ليس بيقين وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علما وما هي به . وإما أن وجدانك وهم تمكن فيك ؛ وعادة رسخت في مكان القوة منك ؛ وليس بالوجدان الصحيح وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هي منه في شيء .

(نتيجة) : لابد ان ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين ؛ على سنة القرآن والذكر الحكيم ؛ ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه (١)

---

(١) النار — قال العراقي : رواه ابو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث بن عمر وقال : هذا إسناد فيه نظر . قلت فيه الواقع بن نافع متروك . وقال الزبيدي في شرح الإحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والاصبهاني وأبو نصر في الإبانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في

« تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » وعند يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون ؛[1] وتبعهم الجامدون القانطون ؛ وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذي لابد منه في تنبيه الغافل ؛ وتعليم الجاهل ؛ وتوضيح المنهج ؛ وتقويم الأعوج ؛ وهو ما تقتضيه السنة الالهية في التدريج « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وهو خير الناصرين .

(الكلام بقية)

﴿ الوفاق الاسلامي الانكليزي ﴾

لقد أذن الله المسلمين أن يعبوا من رفادهم ، ويسترجعوا مجد أجدادهم ، وقد سبق لنا ان قلنا في مقالة نشرت في الجزء الرابع من المجلد الثالث أن مجد الاسلام قام على أساسين وانه هدم بهدمهما وانما يعود بإقامتهما وهما استقلال الفكر واستقلال الارادة أما الأول فإقامته بالاجتهاد في علوم الدين والدنيا وأما الثاني فإقامته بالقوة الخ ماهنالك . وقد لاحظ من قرأ مقالة (مستر . ج . كوربت) الانكليزي الذي عربتها جريدة المؤيد ونشرتها في ستة أعداد وذكرنا أقطاب مسائلها في نحو صفحتين من الجزء الماضي أن هذا الكاتب السياسي بني دعوة قومه الى الاتفاق مع المسلمين على أمرين (أحدهما) ان دين الاسلام دين مدنية يمكن لمتبعيه ان يتفقوا مع أمة راقية كالأمة الانكليزية ويسيروا معها في كل طريق من طرق العمران فتنتفع بهم وينتفعوا بها . وهو يشترط في ارتقائهم ما يشترطه أشهر فضلائهم ، وهو إطلاق العقل من القيود والاغلال ، وتمتعه بنعمة الاستقلال ، والتربية الدينية ، التي تميد اليهم صفات

الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد . (١) الكافر من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف الحق ثم يتاري فيه وينكره عناداً . اهـ من هامش الأصل

الرجولية . و (ثانيهما) ان المسلمين قوتين وحدة في آسيا وهي الأمة الافغانية . وأخرى في افريقيا وهي الفرقة السنوسية . وعلى الكاتب ان الواجب على الانكليز أن يستعينوا بمسألة القوتين . على تمكين سلطتهم في القارتين . وذلك بجعل مصالحهم متفقة مع مصالح الأمة الاسلامية . ومساعدتها على العروج في معارج المدنية . فانها أمة واحدة لاجنسية فيها ولا وطنية . (فليعتبر الاحداث الذين يفرقون بين المصري والشامي ، والمغربي والحجازي)

هل نحن في حاجة الى مساعدة دولة قوية حرة كالدولة الانكليزية ؟ وهل الدولة الانكليزية في حاجة الينا ؟ نعم ولكن فرقا بين الحاجتين . نحن نحتاج الى مثل الانكليز الذين هم السلطان الرسمي وغير الرسمي على نحو نصفنا لأجل النهوض والقيام ، وهم يحتاجون الينا لأجل الثبات والدوام ، لا نحن نحتاج اليهم في الحال ، وهم يحتاجون الينا لاجل الاستقبال . وهل يصدق الانكليز في مساعدتنا على التقدم والرقي اذا نحن صدقناهم ؟ نعم اذا قالوا صدقوا ولن يقولوا حتى يعتقدوا بأن المصلحة في ذلك وحتى يثقوا بنا . وقد رأينا هذا الكاتب منهم يحاول إقناعهم بالمصلحة وبكوننا أهلا للثقة وقد سبقه الى ذلك غيره من كتابهم وعلمائهم فهل وجد فيمن حاول إقناعنا بذلك مع أننا أحوج الى الوفاق منهم إذ من البديهي أن المحكوم الجاهل الضعيف أحوج الى مرضاة حاكمه العالم القوي . ولكن الجاهل يمنعه الجهل ان يعلم المصلحة واذا علمها يمنعه الضعف ان يدعو قومه اليها لأن الجاهلين إنما يخاطبون بما يهوون لا بما ينتفعون . أرأيت كيف كان السيد احمد خان ظنيناً في قومه متهماً في بلاده عند ما قام يدعو الى الوفاق بين مسلمي الهند وحكامهم من الانكليز ؟ لاجرم أن هذا هو شأن الجهل ولكن المسلمين ابتدأوا يتسللون منه يوماً فيوماً ، فذلك لا يلبث من يجهر في مصر بمثل دعوة المرحوم السيد أحمد خان عشر معشار ما لقي من البغضة وما عانى من مراره التهمة وان كانت مصر ليست من الامبراطورية البريطانية كالهند

المسلمون في مصر عرفوا ما كان عليه اخوانهم مسلمو الهند أيام الجفاء بينهم وبين الانكليز وعرفوا ثمرة دعوة احمد خان وثمرة مدرسته في حفظ حقوقهم ومصالحهم بالوفاق مع الانكليز واسترجاع ما كان سلب منها بالتدريج . وظهر لهم خذلان أحداث السياسة الذين جعلوا التعلق بالتنفير من الانكليز منبعاً للمال ومنبراً للجاه وعلموا أنهم غاشون خادعون ضالون مضلون فتغيرت الأحوال وصار شيخ الجامع الازهر يزور عميد الانكليز في مصر وشاعر الخديو يمدح ملك الانكليز وينشر ذلك في الجرائد التي تنتمي الى

الانكليز وليس هذا ولا ذاك من تضطرهم وظيفتهم أو تقضي سياستهم بأن يفعلوا ما فعلوا!

أننا نعلم مع هذا ان اكثر المسلمين يرتابون في تحقيق هذا الوفاق ولو عرفوا مصلحتهم ومصلحة القوم بالبرهان لما كان لهم أن يرتابوا . ان من مصلحتنا التي لانشك فيها ان تكون تربيتنا اسلامية دينية وترى الانكليز الداعين الى الوفاق يرون رأينا في هذا . أن من مصلحتنا ان نكون رجالا مستقلين في علومنا وأعمالنا وترى الانكليز يدعوننا الى ذلك ويقولون انه يساعد على الوفاق بيننا وبينهم . ان من مصلحتنا احياء اللغة العربية لغة الكتاب والسنة واللغة الجامعة للأمة وترى الانكليز يوافقوننا على ذلك . فهل نرتاب في ان شيئاً من هذه الأمور هو من أهم مصالحنا؟ كلا

يقول قائل : ان كاتب المقالة وطائفة من الكتاب والسياسيين الانكليز قالوا بهذا القول ولكن الدولة لم تقل به ولم ينتشر بعد فيصير رأياً للأمة البريطانية فتقول ان الحكومة ستضطر الى مجاراة الأمة . فهل نخدع لقول بعض الكاتبين ، ونثق بمن لايتفق معنا في لغة ولا جنس ولا دين ؟ ونقول في الجواب : قد قال مثل ما قال هؤلاء حاكم الهند العام الذي يحكم مئتي مليون من النفوس منهم نحو تسعين مليوناً من المسلمين أو زهاء خمسة أضعاف ما تحكمه الدولة العلية من المسلمين . وهب أنه لم يقل بذلك أحد من الحاكمين البريطانيين فأنا سائلك : أي خدمة تقدمها أنت وقومك للانكليز جزاء على اعتقادك باخلاصهم في حب الوفاق معكم فتخاف ان تضيع هذه الخدمة مع من لايستحقها ؟ لو أن هذه الدولة محتاجة الينا اليوم في عمل اختياري وهي تخطب ودادنا لنخدمها به لكان لنا ان نقول : انه يجب علينا أن نأخذ بالاحتياط ولا نخسر عملنا حتى نثق بصدق مجاملتنا .

يقولون لنا بلسان حالهم أو بلسان مقالهم: ربوا التربية الدينية ، واتصفوا بصفات الاستقلال والرجولية ، وتعلموا العلوم الفنون ، وحصلوا المال والثروة ونحن نساعدكم على ذلك . فهل من الاحتياط ان لانشتغل بشيء من ذلك لأن هذا ثقة بالقوم ولا ينبغي لنا أن نثق بهم الا بعد قيام البرهان على صدقهم . كيف يكون هذا وان مايصدر عنهم هو عين البرهان على صدقهم .

يقول القائل: انهم يخادعون بمثل هذه الأقوال أمير الافغان والسنوسي ليكون الأول معهم على روسيا وليأمنوا من الغارة الثاني على السودان . ونقول ان هؤلاء الكتاب يخاطبون دولتهم وان حاكم الهند كان يخاطب رعيته المسلمين ومثله حاكم سيراليون (راجع صفحة ٧٠٧ من المجلد الرابع) فهل اتفق هذا وهو في غربي أفريقيا مع ذلك في شرقي

آسيا على مخادعة السنوسي الذي لا يسمع خطبهما ولا يقرأ الجرائد فيعرف خبرها ؟ . نعم ان أمير الافغان يعرف أحوال الهند وما يقول حاكمها . ولكن حاكم الهند العام لا يقول للمسلمين : « انني لو كنت مسلماً لما أضعت من وقتي خمس دقائق من غير فكر في ترقية شأن الاسلام » ولا ينصح للمسلمين بأن يقيموا التربية الدينية ويمدهم بمساعدة الحكومة لهم لمجرد المخادعة فانه انما كان يخاطب قوماً عاملين يخاطب رجال التربية الاسلامية في احتفالهم العام بمدرسة عليكده . فقوله هذا أكبر منشط لهم بالفعل . ثم ما كان لأمير الافغان أن يخدع بالاقوال . التي لا تنطبق على الاعمال .

يقول هذا القائل : ان هؤلاء الحكام يقولون هذا ليطمئن المسلمون الى حكومتهم وهم يعلمون ان المسلمين لا يعملون . وتقول : اذا كنت أيها المسلم أسوأ ظناً بقومك منك بالانكليز فلا تحمل الذنب على خير الفريقين ولكن اجعله على شرهما وهو من يقال له اعمل لنفسك فلا يعمل ثم يعتذر بأن من يقول له اعمل غير مخلص في قوله . واعلم ان عقلاء المسلمين لا يرضون لأنفسهم ما وصفتهم به وأن الانكليز لم يقولوا ولن يقولوا للمسلمين اقعدوا ونحن نسعى لكم . وأنهم ان قالوا لرعاياهم : اعملوا ونحن لا نعارضكم فلهم الشكر . فان زادوا وقالوا ونحن نساعدكم فلهم الفضل العظيم فان سائر المستعمرين من الافرنج يمنعون رعاياهم ومن في حمايتهم من غير اهل دينهم من التعلم . وكل وسائل التقدم .

هذا الوفاق يراه المصريون رأياً جديداً ويراه سائر العثمانيين قديماً فهو رأي أكثر وزراء الدولة وساستها ولكنه كان وفاقاً انكليزياً تركياً . وكان عليه العمل بين الدولتين ولا تنسى مساعدة بريطانيا العظمى للدولة العلية في الحروب الروسية حرب القرم وما بعدها . ثم راخت عرى الصلة بينهما بعد احتلال انكلترا مصر وكادت سياسة المستر غلادستون التحمسية تقطع تلك العرى تقطيعاً بما ظهر من تعصبه على الدولة وعلى الاسلام في ابان الفتنة الأرمنية . وكان من أثر ذلك توثيق عرى الصلة بين السلطان وعاهل الالمان وضعف نفوذ الانكليز وكسدت تجارتهم في البلاد العثمانية حتى قال البرنس بسمرك ما معناه : ان المعلم غلادستون قد هدم بشقشقته الحمقى ما بنته دولته في نحو قرن . ولا يزال أكثر نبهاء العثمانيين يفضلون الانكليز على كل دولة أوربية وهذا كله مبني على قاعدة مسلّمة عندهم وهي انه لا بد للدولة من الاعتماد على دولة أوربية في سياستها الخارجية

[illegible] جميع مسلمي [illegible] بالقضي [illegible] الوفاق لا [illegible] الانكليز وهذا أكثر مما تشفع المسلمين الذين عقدهم بها نفس عاقل كما قلنا . فان أولئك المسلمين بالدولة العلية يربط همهم عن السعي وراء الاستقلال الذاتي الذي هو روح حياة الأجناس كما بيناه من قبل ويزيد عليهم ضغط حكامهم لأنهم يرونهم مائلين الى حكومة أخرى . ومن شأن الضغط ان يفيد ولكنه لا يفيد ههنا لأن المضغوط عليه لا يحاول الخلاص من الضغط لاعتماده على غيره وقد ثبت هذا بالتجربة المؤيدة للنظر . كان الوفاق انكليزيا تركيا فأصبحنا نريد بالوفاق الاسلامي الانكليزي وهو وفاق أشرف وأعلى وأعم وأنفع . كانت سياسة انكلترا في ذلك الوفاق مبنية على قاعدة : يجب أن لا تسقط تركيا ولا تقوم يجب أن لا تموت ولا تحيا . وأما قاعدة هذا الوفاق فهي : يجب أن يعود للمسلمين استقلالهم الذاتي وان ينفخ فيهم روح الدين الاسلامي بفضائله وآدابه ليبعثهم الى المدنية الحقيقية ولكن يشترط ان يكونوا هم العاملين والانكليز من المساعدين . فاذا صح هذا فهو أكبر أمنية يتمناها كل عاقل من المسلمين . ويرضى هؤلاء العقلاء من انكلترا بأن لا تكون على الدولة العلية اذا لم تكن معها وبأن لا تدخل جزيرة العرب ولا تمكن دولة غير مسلمة من دخولها كيفما كان حال الدولة العلية لأن الجزيرة عند المسلمين معهد ديني كالمسجد ومن أركان الوفاق إقامة دين الاسلام لا هدم مناره وتعطيل شعاره

الواثقون بدينهم من هؤلاء العقلاء يعتقدون بأن الامة الانكليزية الحرة اذا عملت بنصيحة ميستر كريت وأضرابه (ومنهم اسحق طيلر الذي نشرنا كثيراً من مقالاته في أجزاء من السنة الماضية والسنة الحاضرة) ودرست الاسلام درساً صحيحاً فانها تدخل فيه أفواجاً . وقد سبق لنا القول بأن أمة أوربية كهذه اذا دخلت في الاسلام فانها تملك بالمسلمين الشرق كله ولا يبعدان تملك بهم الغرب أيضاً فان أكبر قواد الحرب في أوربا قالوا انه يسهل عليهم ان يفتحوا أوربا كلها بمئة الف من جيوش المسلمين .

أنّى لنا بصوت نديٍّ من ذي برهان قوي ، يبلغ قومنا مبلغ انتفاعهم من هذا الوفاق ويلهمهم كيف يقنعون الانكليز به ويمثلون له مصلحتهم فيه مندودة مع مصلحتنا في قرن . ان هذا من وظيفة الجرائد ووظيفة أهل الرأي في الامة . وقد علمنا ممن ذاكرناهم من عقلاء المصريين الارتياح لهذا الوفاق اذا وثقوا من رضاء

الدولة الانكليزية به ورأينا الجريدة السياسية الكبرى للمسلمين في مصر (المؤيد) موافقة عليه ولا يوجد في مصر جريدة سياسية غيرها يعتد المسلمون برأيها في مصلحة المسلمين . الا أن هؤلاء يرتابون في انكلترة مصر ان لم يرتابوا في انكلترة الهند وحجتهم في الارتياب ماذكره المؤيد ويذكره جميع الناس من تصرف المستر دنلوب في المعارف تصرف من يريد إضعاف اللغة العربية والدين الاسلامي في مدارس الحكومة . وانتقاد عمل المستر دنلوب مجمع عليه في مصر لا يختلف فيه مع المسلمين القبط والاسرائيليون فهو منتقد في غير ماذكرنا من أمر اللغة والدين . ولا ينسب عمله الا الى سياسة دولته وان كان يجوز انه خطأ في ادارته .

والذي يكشف عن وجه الحق في هذه المسئلة وأشباهها هو أن يرجع بعض الوجهاء العقلاء الى من بيده أزمة سياسة هذه البلاد وهو اللورد كرومر ويبينوا له الضرر فيما يعتقدونه ضارًّا للبلاد أو للمسلمين في لغتهم أو دينهم فان أشكاهم وأزال الضرر فعليهم أن يعتقدوا أن الانكليز لا يريدون بالمسلمين سوءا وانما يجبون أن يتفقوا من بلادهم ويخدموهم جزاء على ذلك . وان تبين له الضرر وأصر على ابقائه فعليهم أن يسيؤا الظن بدولته وأن يعتقدوا أن هذه الاقوال التي تقال في الخطب والكتب والجرائد تقرير وتمويه . اما نحن فنظن انه لا ينتفع منهم بمضرة الا ويزيلها قياساً على من كله في شأن ابطال النيابة من المحاكم وبين له ان ذلك ضارٌّ بالبلاد فكف قبل الاتفاق على ذلك بعد توكيده . وعلى من كله في مسئلة بيع الدائرة السنية وبين له مضرة الفلاحين فيه فنقض الاتفاق بعد ابرامه . ومثل ذلك كثير

ونختم البحث بقول ينبغي أن نكرره دائماً وهو أن من لا يعمل لنفسه فلا يصح ان يطالب غيره بأن يعمل له . ومن كان مقصراً في حفظ حقوقه فلا يلوم غيره اذا قصر فيه . ومن عرف نفسه وعرف مكانه ممن يعيش معهم لا يُظلم ولا يهضم . ومن أعطي الحرية في العلم والعمل ، فليس له عذر في التقصير والكسل ومن عرف قوة الرابطة الاسلامية لا يقطعها بعدية الوطنية فلولا أن المسلمين كالجسد الواحد كما ورد في الحديث لما طلب الانكليز الوفاق معهم ، ومن ظلم نفسه كان جديراً بأن يظلمه غيره .

اذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

والسلام على من تدبر القول فحكم عليه لا على القائل . وكان همه منه التمييز بين الضار والنافع والحق والباطل .